

جول فيري: مهندس الإمبراطورية الفرنسية.

~~~~~ أ. د دحو فغورور §§§

إن الشخصية الفرنسية التي نحاول في هذا العرض المتواضع تقديمها للقارئ - وبخاصة طلبة التاريخ - تعتبر بحق شخصية فذة بغض النظر عن موقفنا السياسي اتجاهها، وبغض النظر كذلك عن كل التناقضات التي حملتها هي بدورها، والتي كانت السبب وراء تلك العلاقة التي أقل ما نقول عنها أنها كانت علاقة حب - كراهية، والتي أثارها في المجتمع الأوروبي عامة، وفي المجتمعات الأخرى التي حاولت تغيير مجرى حياتها خاصة.

ولد فيري Jules- François Camille (جول - فرانسوا كميل) في يوم 5 أبريل 1832م في مدينة سان ديي Saint Dié، وتوفي في باريس في 17 مارس 1893م، لقد استهل حياته المهنية في سلك المحاماة ثم التحق بصفوف الجمهوريين المعارضين للإمبراطورية، وفي سنة 1869م تم انتخابه نائبا لدى الهيئة التشريعية. وبعد سقوط نابليون الثالث عين على رأس محافظة السين Seine ثم باريس. وبعد نهاية الحرب الفرنسية - البروسية تم انتخابه ممثلا لمحافظة الفوسج Vosges. وخلال حكومة Thiers تقلد منصب Prefet والي محافظة السين، وبعده عين سفيراً في اليونان.

بعد ذلك بقليل وبالضبط في فبراير 1879م عين وزيرا مكلفا بالتربية الوطنية ضمن فريق حكومة وادنجتن Waddington. ومن وزارة التربية التي بقي على رأسها ما يقارب عشرين شهرا، يرقى ويعين في 23 سبتمبر 1880 على رأس الحكومة، وهو منصب سيشغله إلى غاية 10 نوفمبر 1881م تاريخ استقالته. وبعد انسحاب من الحياة السياسية دام أقل من سنة ونصف يعاد تعيينه لرئاسة الحكومة من جديد من 21 فبراير 1883م إلى غاية مارس 1885م تاريخ سقوطه على إثر هزيمة لانج سان - Lang Son.

وخلال الفترتين اللتين شغل خلالهما جول فيري منصب رئاسة الحكومة 1880-1881م و1883-1885م قامت فرنسا بالاستيلاء على ممتلكات جديدة ضمتها إلى إمبراطوريتها التي لم يكن يستهان بها. إذن، لقد أصبحت فرنسا مركز ثاني أوسع إمبراطورية في العالم. لقد أصبحت العديد من الأراضي بعضها حديث العهد في اتصالها بالمكتشفين الأوروبيين، تابعة للعلم الفرنسي.

كما ضمت فرنسا أراض أخرى لم يكن لها عليها سوى مزاعم وهمية. فغن طريق أساليب شتى ر متنوعة مثل الضم العمدي أو الحماية أو ما شابه ذلك أضيفت عدة بلدان ككونس وأنام Annam، وتونكين Tonkin ومدغشقر Madagascar والكونغو Congo ونقاط أخرى واقعة على طول الساحل الغربي الإفريقي إلى ما كان يعرف بالمتروبول. مع ذلك وعلى مرّ فترة الحملات الإمبريالية والحروب التي استهدفت توسيع رقعة الإمبراطورية لم يحاول جول فيري شرح أهدافه للجمهوريين، كما أنه لم يحاول كسبهم إلى نظريته التوسعية. بالعكس، لقد حاول أن يجرهم خطوة خطوة ليضعهم في الأخير أمام الأمر الواقع. ويظهر أن فيري بنفسه وفي العديد من الحالات لم يكن على يقين من أبعاد مبادرته وطموحاته. وربما هذا هو السبب الذي جعل العديد من معاصريه يصفون سياسته الاستعمارية بأنها متذبذبة، وأنها صممت في تسرع. عموما يبدو أن سياسة فيري الاستعمارية تبلورت من جراء الأحداث التي حاولت تغييرها. وكتيجة لكل هذا وذلك نتج ذلك الأسلوب العنيف الذي أشتهر به فيري، والذي طالما أقلق مناصريه، والذي كان في النهاية السبب المباشر وراء تدهور شعبيته<sup>1</sup>.

لما قام جول فيري في 23 سبتمبر بتكوين أول حكومة، كانت فرنسا بحوزتها إمبراطورية استعمارية متواضعة امتدت إلى الهند الصينية والعالم الجديد. وفي إفريقيا، وباستثناء الجزائر التي احتلتها فرنسا منذ 1830م، فإن الإمبراطورية اقتصرت على سهل السينغال وبعض المراكز الاقتصادية على الساحل الغربي إضافة إلى سانت ماري Saint Marie وبعض الجزر الأخرى حول مدغشقر ولا ريونيون La Reunion وأبوك Obock. أما المستعمرات الأمريكية فكانت تضم كل من سان ييار Saint Pierre وميلكون Miquelon ومارتينيك Martinique وقوادولوب Guadeloupe وغيانا Guyane وطاهيتي Tahiti.

في مستهل مشوارها السياسي جمدت الجمهورية الثالثة المشاريع الاستعمارية ما بين 1871 و1878م حيث تمثل هذه السنة الأخيرة تاريخ تأسيس اللجنة العليا للمستعمرات Commission supérieure des colonies، ذلك إذن كان أول ردّ فعل للجمهورية الثالثة لموضوع المستعمرات.

في مسرح آخر للأحداث، وبالضبط في شرق الهند الصينية كانت فرنسا قد تحصلت من خلال معاهدة 5 جوان 1862 على ثلاثة مقاطعات هي جيا دينج Gia-Ding ويان هوا Bien-Hoa ودينه تونج Dinh-Tuong أما جزيرة بولو-كوندور Poulo-Condor وما كان معروفا بغرب الكوشنشين Cochinchine فتم ضمه إلى المستعمرة في 1867م.

في نفس الفترة وتحديدًا في سنة 1863م قام قائد القطعة البحرية "لاجرانديار" La Grandiere بإجبار نورودوم سيهانوك Norodom Sihanouk على قبول حماية فرنسا على كمبوديا. الآن وبعد أن وقع نهر الميكونج Mekong في قبضتها طلبت فرنسا من الربان دودار ديلاجري Doudar de lagree البحث عن إمكانية الوصول إلى إقليم اليونان unan الصين يعبر نهر الميكونج. وهو أمر حققه في 1868م، وعليه أصبحت فرنسا من جراء هذه الحملة في اصطدام مباشر مع المصالح الصينية في الطونكين. نجم عن ذلك نشوب مسألة الطونكين، والتي سنعود إليها بعد قليل.

في مؤتمر برلين سنة 1878م قام لورد بيكنسفيلد Lord Beaconsfield - دزرائيلي الشهير Disraeli- بتشجيع فرنسا علانية على احتلال تونس. ويمكن إرجاع الموقف البريطاني لأسباب عدة منها: محاولة إنجلترا تهئية الوضع بعد احتلالها قبرص. وأهم من هذا ربما تشجيع الأطماع الفرنسية في ممتلكات بعيدة عن مصر. من جهته بسمارك ضم صوته إلى صوت دزرائيلي، لتشجيع الأطماع الاستعمارية الفرنسية، ولو أن الدافع البسماركي كان أوروبا بحثًا متمثلًا في صرف النظر الفرنسي عن التحرك الألماني داخل أوروبا الوسطى. أما وادنجن وزير فرنسا للخارجية وممثل فرنسا لدى المؤتمر فإنه استقبل التشجيعات البريطانية والألمانية بكل برودة لأنه شخصيًا كان معارضًا لأي نوع من السياسة التوسعية.

في هذه الفترة كانت تونس ميدان صراع بين الطماع الفرنسية والأطماع الإيطالية. مقابل ذلك فُتحت حكومة الباي في تونس سياسية الكرسي المتأرجح: تميل أحيانًا في اتجاه فرنسا وأحيانًا أخرى في اتجاه إيطاليا، وفي كل هذا بقي كل من روستان Rostan وماتشيو Maccio، وهما على التوالي قناصل فرنسا وإيطاليا على عهدهما المفضل والممثل في تضيق الخناق على بعضهما البعض وهذا منذ 1874م. ويبدو أنه مع حلول 1880م تمكن القنصل الإيطالي من إقناع الباي بضرورة تقليل النفوذ الفرنسي في تونس.

لقد قابلت باريس التغيير الذي طرأ على سياسة تونس اتجاهها بسخط وحسرة، وتبع ذلك تأزم الوضع وسوء العلاقة بين البلدين، هذه الوضعية ازدادت سوءًا من جراء ما كانت تدعيه فرنسا من قيام بعض القبائل التونسية من هجمات على المزارعين الفرنسيين المقيمين في الجزائر على الحدود التونسية، هذه المناوشات الحدودية والمعروفة باسم مسألة كرومير P'affaire kroumir وجدت رواجًا لها لدى الصحافة التي كانت تغذيها الأوساط التوسعية، وعلى رأسها الحاكم الفرنسي في الجزائر الذي بدأ يطالب بتنظيم حملة عسكرية ضد تونس.

تلك إذن كانت الوضعية التي ورثها جول فيري لما قام بتشكيل أول حكومته، ومنذ البداية كان جول فيري مع فكرة تنظيم حملة "لحماية" الحدود الجزائرية، و"تثبيت" الاستقرار في تونس، وأخيراً توطيد النفوذ الفرنسي في منطقة جد استراتيجية كانت إيطاليا هي الأخرى تطمع في ضمها.

وعليه قام فيري في 4 أبريل 1881م بعرض مشروعه أمام الغرفتين للحصول على الدعم المالي لإعداد حملته المنشودة، وهناك تمكن بأسلوب خطابه المقنع أن يهزم بكل سهولة معارضييه. بعد ذلك بقليل وتحديداً في 23 أبريل 1881م قام جيش برّي باجتياح تونس من الحدود الجزائرية في حين تم إنزال قوة أخرى قوامها 8000 عسكري بيزرت.

لقد نزلت أخبار حملة فرنسا على تونس كالصاعقة على العواصم الأوروبية عامة، وعلى العاصمة الإيطالية خاصة، وفي 12 ماي 1881م وضعت أوروبا أمام أمر واقع آخر تمثل في إعلان الحماية الفرنسية على تونس. وفي يوم 27 ماي قام البرلمان الفرنسي بمجموع 430 صوت مقابل صوت واحد معارض بتوقيع معاهدة باردو Bardo، والتي بموجبها "وافق" باي تونس على الحماية الفرنسية.

الصوت المعارض كان لكليمونصو CLEMENCEAU الذي اتهم الحكومة بأنها ضحت بصداقة إيطاليا، مباركة بسمارك لاحتلال تونس كانت هي الأخرى مصدر خجل لفيري الذي أصبح من يومها ينعى بحليف بسمارك. مقابل ذلك استقبل الشعب الفرنسي خبر الاحتلال بالامبالاة التامة، كما عبر عن ذلك أحد المؤرخين بقوله: "إن الخدمة الجليلة التي قدمها فيري لبلده، والهدية العظيمة التي أهدها لفرنسا قوبلت بالامبالاة وبسوء الفهم مع الجند بدأ الإجحاف"<sup>2</sup>.

لقد ردّ فيري على لامبالاة الشعب وانتقادات معارضييه في خطاب وجهه أمام الجمعية التي تم انتخابها مؤخراً بقوله: "حين يسمع المرء ما قيل، ويقرأ ما كتب حول المسألة التونسية، يظهر وكأننا مقبلين على كارثة وطنية، إن أحزاب اليمين وأحزاب اليسار على حد سواء ما فتوا يذكروننا بأن الحملة كانت مصيبة كبرى يمكن أن تفقدنا صداقة أوروبا، وأن الحملة يجب وضعها في نفس مستوى الحملة المكسيكية"<sup>3</sup> "المخجلة"<sup>4</sup>.

وفي الأخير تمكن فيري من إسكات معارضييه. عموماً، لقد استقبل الساسة الفرنسيين الحملة التونسية بنقد لاذع. هذه المعارضة مثلت نواة عرف سيء سوف يخيم على كل مشوار فيري السياسي، والذي سوف يتجدد في المستقبل مع كل الحملات التوسعية الفرنسية خلال عهده.

تبرير فيري للحملة ضد تونس من زاوية أنها كانت تهدف إلى حماية المعمرين الفرنسيين في الجزائر من هجمات الكرومير أصبح مصدر تداول لتعاليق شعبية ساخرة. فالعبارة الفرنسية "فتشوا عن الكرومير"

(chercher le kroumir) هي وليدة الفترة. مع ذلك تبقى الأسباب الحقيقية وراء الحملة التونسية أعمق من هذا كله.

ربما كان فيري متخوفاً من أن الحلف الثلاثي المشكل من ألمانيا وإيطاليا سنة 1882 سوف يؤدي إلى نزول فرنسا نهائياً في أوروبا. ولهذا كان على فرنسا أن تسترجع بعض مجدها المفقود عن طريق ضم أراضي خارجية<sup>5</sup>.

كما تجلر الإشارة إلى أنه إلى غاية 1883م لم يفصح فيري - وربما لم تكن الفكرة نفسها قد تبلورت لديه - عن مشروع سياسة استعمارية بأتم معنى الكلمة ففي خطبه خلال الفترة ما قبل 1883م لم ترد كلمة "توسع" إطلاقاً. بالإضافة فإن السياسة الاستعمارية التي أوجدها لم يكن لها مثيل لا خلال الفترة البربونيه ولا العهد الجمهوري السابق؛ فقبل فيري لم يقم أي رجل دولة فرنسي في الدوائر الحكومية أو خارجها ببناء مشروع توسيع النفوذ الفرنسي إلى ممتلكات جديدة كجزء أساسي في الهيكل العام للسياسة الفرنسية الدولية. مع ذلك كانت هناك بعض الأصوات المنعزلة تطالب من حين إلى آخر بتدعيم أو توسيع الإمبراطورية التي كانت متواجدة في هذا الاتجاه أو ذلك. إلا أنه ولا أحد حاول تأسيس أو تشكيل التوسع المنشود في شكل نظام قائم بذاته.

في هذا المجال يبقى فيري - مع كونه مؤسس هذا النظام - غير مخترعه، في الأصل لم يكن له الخلدس ولا الرؤية الواضحة لهذا التصور؛ فلم يتصور فرنسا في شكلها الإمبراطوري كما أنه لم يخطط لذلك، ومع ذلك كانت هناك حقائق ومعطيات زودته بعناصر الهيكل الكلي، لقد كان على رأس الحكومة في وقت كانت فيه فرنسا تملك مستعمرات متناثرة عبر العالم؛ فأدى هذا إلى دفع فيري إلى التعامل مع الملف الاستعماري. إلا أنه بدل أن يكتفي بمحصر دوره في إطار إدارة وتسيير ما هو موجود، حاول فيري توسيع المستعمرات وتنظيمها في شكل جديد.

ولتحقيق هذا الهدف كان عليه أن يجتاز أول عقبة، والمتمثلة في كيفية إقناع الغرفتين وفرنسا بنظرته. وأخيراً رأت النظرة التوسعية الميلاد من جراء الممارسة وإلهام الساعة. ويمكننا تلخيص العملية الكاملة التي أُنشئت نظرية فيري التوسعية بقولنا إن فيري تمكن من استبدال الفوضى القائمة في هذا الميدان بمشروع خطير - وإن تم تصميمه بعد الأحداث - إلا أنه في الحقيقة كان إنجاز لتصور جديد وقطيع النظر.

من هذا المنظار يمكننا القول أن القضية التونسية شكلت دوراً هاماً في تكون نظرة فيري الاستعمارية؛ فإن كان فيري في سنة 1881م لم يملك بعد التجربة الأساسية التي أصطلح على تسميتها "بموقفه من المستعمرات"؛ فإن نجاح الحملة شكل أول خطوة نحو هيكلة مثل هذا الموقف.

مع ذلك يجب علينا أن لا ننسى أن ذلك الموقف هو في الحقيقة وليد الهزيمة (أي هزيمة 1870). وكونه كذلك، فإنه كان يمثل في الحقيقة فكرة التعويض لا التوسع. فلا شيء في هذا الموقف كان يحمل في طياته سمات أو عناصر "الجال الحيوي" المتواجدة في الأشكال الأخرى للتوسع المعاصرة. ففقدان منطقة الألزاس واللورين Alsace Lorraine، ربما كان السبب الحقيقي وراء كل عملية توسع. مع ذلك يبقى أنه بمجرد إقبال فيري على سياسة التوسع الإمبريالي في تونس، لم يعد في وسعه سوى تعزيز هيمنة فرنسا في أماكن أخرى، ولما عاد إلى رئاسة الوزارة بعد سنتين كان الطريق قد عبد أمام مشروع التوسعات.

لقد مثلت منطقة أسيانيا Oceania (منطقة في وسط جنوب الهادي) مسرحاً آخر شهد توسع النفوذ الفرنسي أيام حكومة فيري، كما حولت هيتي وجزر ليوارد Leeward إلى محميات فرنسية جديدة.

في إفريقيا، حين مجيء فيري إلى السلطة، كانت فرنسا تسعى جاهدة إلى توسيع مستعمراتها في السنغال كما أنها كانت تحاول السيطرة على ما كان يعرف بالسودان الفرنسي: لقد أنشأت السكك الحديدية، وأسست المراكز الحصنة لفتح أراضي جديدة.

مع حلول سنة 1885 تم إنجاز حوالي 54 كلم من السكك الحديدية، وما يقارب 110 كلم من الطرق شبه المعبدة. كان السنغال وأجزاء من النيجر المستفيدين الأوائل من هذه الإنجازات<sup>6</sup> مع ذلك تجدر الإشارة هنا إلى أنه فيما يخص مسألة استعمار السنغال والسودان الفرنسي؛ فإن الجيش الفرنسي في المستعمرة لعب الدور الأول في عملية توسيع النفوذ الفرنسي قبل السياسيين في باريس، هذه التوسعات عززت الإمبراطورية بممتلكات جديدة: غينيا الفرنسية وساحل العاج والداهومي واليابون.

إن أهم إنجاز إمبريالي فرنسي في إفريقيا لم يتحقق إلا حين تمكنت من تأمين الكونغو، لقد ظلت منطقة الكونغو إلى غاية نهاية القرن التاسع عشر مجهولة للرجل الأوروبي، ويرجع الفضل في اكتشاف الكونغو إلى سافريون دي برازا Savorgnan de Braza الذي قاد في ربيع سنة 1875م حملة استكشاف الأغوي Agowé في الغابون. في هذا الوقت كان ليوبولد Leopold ملك بلجيكا قد نظم مؤتمراً لاستكشافيين وجغرافيين مختصين في الشؤون الإفريقية لإتمام استكشاف الكونغو وتأمينه للعرش البلجيكي. لهذا الغرض أرسل هنري ستانلي Henry Stanley مع مجموعة أخرى من الاستكشافيين لتأسيس سلسلة من المراكز التجارية في منطقة الكونغو.

في سنة 1879م التقى الاستكشافيون الفرنسيون والبلجيكيون لأول مرة كل من جول فيري الذي كان في ذلك الوقت وزيراً للتربية وغمبيطة Gambetta تبنى مشروع دي برازا الرامي إلى إحباط

المخططات البلجيكية. من أجل هذا الغرض زود دي برازا بالدعم المالي اللازم وكلف "بمهمة حضارية" تمثلت في تعريف الأهالي بالثقافة الفرنسية والديانة المسيحية وكذا تأسيس مراكز تجارية. في 10 سبتمبر 1880 تمكن دي برازا الذي يبدو أنه صنع لنفسه "سمعة طيبة" مع الأهالي من إقناع مكوكو Mokoko زعيم جماعة البتيكي Bateké من توقيع معاهدة تعترف بسيادة فرنسا على منطقة الكونغو الممتدة من نهر لفيني Lefini إلى بحيرة ستانلي.

بعد أسابيع قليلة من توليه رئاسة الحكومة للمرة الثانية شرع جول فيري في تطبيق سياسة توسعية جد نشطة. في البداية أرسل فيري برازا في حملة ثالثة تهدف إلى توسيع المستعمرة الجديدة في إفريقيا الاستوائية. إن السباق من أجل الفوز بالكونغو لصالح بلجيكا أو فرنسا تعرض إلى ضربة قوية في 1884م حيث تم الإعلان عن معاهدة إنجليزية برتغالية منحت الأرض الواقعة عند مصب نهر الكونغو إلى البرتغال كما أعلن عن تأسيس دورية عسكرية إنجليزية برتغالية لمراقبة النهر.

لقد عارض فيري بشدة هذه المعاهدة منذ سماعه بها من زاوية أنه بالرغم من أن إنجلترا والبرتغال لم يعملا أي مجهود لفتح الكونغو فإنهما يحاولان الإستحواذ عليه. من جهتها ألمانيا استقبلت أخبار المعاهدة بانتقادات شديدة. لقد انزعج البرتغال من جراء ما وصله من انتقادات لحد اقتراح عرض مسألة الكونغو على التحكيم الدولي. رحب كل من بسمارك وفيري بفكرة عقد مؤتمر لتأمين حرية الملاحة ومساواة الحقوق على الكونغو لكل الدول. وبالفعل عقد المؤتمر المشهود في برلين من نوفمبر 1884 إلى غاية 1885م. وبموجبه تحصلت فرنسا على الضفة الغربية للكونغو بينما تحصلت بلجيكا على الضفة الشرقية. وكذلك في المؤتمر تمكنت فرنسا من الفوز باعتراف باقي الدول بشرعية أطماعها على سهل نياري كويلو-Niari Kouilou ذلك الممر مثل الشريان الفعلي لعملية الإستثمار الفرنسي للممتلكات الجديدة. لقد كان بسمارك دعما أساسيا لفيري في المؤتمر، وبدونه يستبعد أن يكون فيري قد تحصل على ما تحصل عليه. في نظر العديد من المحللين يعتبر الكونغو أول منطقة أولى فيها فيري اهتماما خاصا لمسألة توسيع الإمبراطورية الفرنسية؛ فخلال فترة وزارته لقطاع التربية تحصل على الدعم الداخلي لسياسته الإمبريالية عن طريق مخاطبة الشعور الوطني الفرنسي، وكذا تحسيسه بمسؤولية "تحضير" الشعوب المتخلفة، بعبارة أخرى جملة على تقبل فلسفة "عبء الرجل الأبيض".

خلال وزارته الثانية، كرس جول فيري اهتمامه لفكرة الاستيلاء على جزيرة مدغشقر. خلال منتصف القرن التاسع عشر كانت فرنسا متواجدة بقوة في جزيرة ريونيون (جنوب شرق القارة الإفريقية). ومن هنا دخل التجار الفرنسيون في علاقات تجارية مع جزيرة مدغشقر التي كانت آنذاك دولة ذات

سيادة. في نفس الوقت كانت الجماعات المسيحية في المنطقة. ويظهر أن مجهوداتهم قد أثمرت في إعلان المسيحية ديانة الدولة الرسمية سنة 1860م.

مع ذلك لم تكن حياة المعمرين الفرنسيين اليومية سهلة خلال الفترة المذكورة؛ فعلى سبيل المثال قامت قبيلة الهوفا Hovas في جزيرة ريونيون خلال هذه الفترة بالتصدي للهيمنة الاقتصادية على مدغشقر. بحيث بلغت الأمور درجة دفعت بالمعمرين إلى مطالبة باريس عبر الجرائد أو مباشرة عبر الحكام المحليين باتخاذ التدابير اللازمة للاستيلاء على الجزيرة.

من جهة جول فيري الذي كان متأثراً بالتقارير المبالغية في تقييم ثروات مدغشقر ظل بتحقيقين الفرص المناسبة قصد التحرك. جاء ذلك خلال السبعينات حين قامت مدغشقر بإصدار قانون تجاري يمنع الأجانب من حق الملكية. بعدها تصاعدت التوترات بين الهوفا وباريس إلى غاية نوفمبر 1882م حيث حاولت مدغشقر طرح المسألة على طاولة النقاش في باريس نفسها مع المسؤولين الفرنسيين أنفسهم. إلا أن هناك فوجئ الوفد المدغشقري بمطلب فرنسي يخص حق فرنسا على شمال غرب الجزيرة وكذلك حق الأجانب في الملكية؛ فأمام هذا التعتن الفرنسي لم يبق أمام الوفد المدغشقري سوى مغادرة باريس صوب لندن ثم برلين طلباً للوساطة. الوفد المدغشقري كان لا يزال في برلين لما قررت فرنسا التحرك ضد الجزيرة.

في 02 فبراير قام بيار Pierre أحد قادة البحرية الفرنسية بقيادة حملة عسكرية أرسلت إلى مدغشقر لقمع وتحطيم سلطة الهوفا. علماً أن الأمر بإعلان الحرب ضد هذه الدولة الإفريقية أعطي من طرف فيري دون علم مسبق للبرلمان. ميدانياً، لم يعترض فرنسا تصد كبير؛ فالجيوش الفرنسية دخلت تقاتل Tamatave في 10 جوان 1883م. مع ذلك وجدت فرنسا نفسها تواجه مشاكل حقيقية ومن نوع آخر؛ فقادة الحملة الفرنسيين أساءوا معاملة الرعايا والمسؤولين البريطانيين في تقاتل خلال عملية الاحتلال. مما أدى بفرنسا إلى أن تعتذر علنياً لبريطانيا.

خلال صيف 1884م، أعلنت فرنسا حمايتها لمدغشقر. ومثلما حدث في الكونغو علل فيري التوسع الإمبريالي على حساب مدغشقر على أساس "الحفاظ على حقوق فرنسا التاريخية وكذا إنشاء قواعد بحرية"<sup>7</sup>.

لم تكن مسائلنا الكونغو ومدغشقر المسائل الوحيدة التي شغلت بال فيري خلال هذه الفترة. مصر كذلك احتلت حيزاً كبيراً في الدبلوماسية الفرنسية المعاصرة. تاريخياً التنافس الفرنسي الإنجليزي على مصر يرجع إلى عهد نابليون بونابرت وحتى قبل. إلا أن الصراع بين العدوتين التقليديتين ازداد حدة حين قام الخديوي إسماعيل (1868-1878م) ببيع أسهم مصر في القناة إلى إنجلترا. معنى هذا أن فرنسا وجدت

نفسها تستثمر في نفس المصالح مع بريطانيا. في حقيقته، بيع الأسهم لم يبق مصر من الإفلاس أي أن الديون الأجنبية ظلت تنتظر التسديد. لأجل هذا الغرض أنشئت لجنة ستيفن كيف **Stephen Cave** للنظر في وسيلة لإخراج مصر من هذه المعضلة، وجاءت توصية اللجنة في اقتراح تشكيل إشراف ثنائي فرنسي-إنجليزي على الاقتصاد المصري- هذا الحل فرض على الخديوي في 1879م. كما أجبر إسماعيل على التنازل عن العرش لصالح ابنه توفيق.

تلك كانت عليه وضعية المسألة المصرية حين وصول فيري إلى الوزارة. منذ الوهلة الأولى رحب فيري بفكرة الإشراف الثنائي. ذلك الإشراف الذي رفضه الجيش المصري الذي النف حول أحمد عرابي. الوضعية الجديدة دفعت فيري إلى التنسيق مع إنجلترا لقمع ثورة عرابي. في نفس الوقت عارض فيري أي محاولة ترمي إلى تدويل القضية. لأنه كان يأبى أن يرى قوات أخرى تساهم في صنع السياسة المصرية. تابع فمببطة بياسة فيري وطلب من جرانفيل **Granville** مشاركته في إرسال تهديد إلى الخديوي في 08 يناير 1882م كي يتخلص من وزيره للدفاع. في البداية عارضت بريطانيا الفكرة الفرنسية ثم قبلت بها. ولما قررت بريطانيا في النهاية اتخاذ التدابير ضد مصر في 03 جويلية، كانت الحكومة الفرنسية قد انتقلت إلى أيد جديدة.

لقد قام فريسيني **Freycinet** باستدعاء الجيش الفرنسي الذي كان يحاصر مصر وهذا خوفا من مطالبة البرلمان بذلك. موقف البرلمان كان له نتائج عميقة على مكانة فرنسا في مصر في المستقبل. لقد كان ذلك بمثابة تراجع فرنسي لصالح الهيمنة الإنجليزية على المنطقة. وهذا الأمر جعل فرنسا تفقد إلى الأبد فرصة النفوذ المباشر في حياة مصر.

لما وصل فيري إلى الحكم للمرة الثانية، فإنه تعامل بالأخص مع مسألتي مدغشقر والهند الصينية. فالملف المصري لم يفتح سوى في آخر سنة من وزارته. حيث وجد نفسه يتعامل مع ثلاثة معادلات: أولا كيفية تأمين مواصلة تسديد عائدات القناة على حاملي الأسهم. ثانيا كيفية استرجاع مكانة فرنسا السابقة في الإشراف السياسي على مصر. ثالثا كيفية التصدي للنوايا البريطانية الهادفة إلى تحقيق هيمنة شاملة على مصر. من أجل هذا الغرض سعت فرنسا إلى الحصول على دعم بسمارك. فكان لها ما أرادت، علما أن هذا الأخير كان مترعجا من الموقف البريطاني اتجاه التوسع الألماني في إفريقيا والهادي.

وعليه التقت الأطراف المعنية بالمسألة المصرية في مؤتمر بلندن ما بين جوان وأوت. إلا أن النتيجة النهائية جاءت عكس تطلعات فرنسا وطموحاتها. لقد أخفقت في الحصول مجددا على بعض النفوذ السياسي في إدارة الشؤون المصرية. مع ذلك تمكن فيري من الحيلولة دون جعل بريطانيا من مصر ميدانها

الخاص. فلو تابعت فرنسا اقتراحه المتضمن إنشاء هيئة للإشراف على السويس لما خلا الجو لبريطانيا فيما بعد.

إضافة إلى مصر، أصبح فيري متورطا خلال عهده الثانية في مهمة توسيع الإمبراطورية في بقعة جديدة من العالم: الهند الصينية؛ فعملية توسيع الإمبراطورية في جنوب شرق آسيا كانت سببا آخر وراء "شهرة" فيري كمهندس إمبراطوري.

حين مجيء فيري إلى الحكم كانت فرنسا تحظى ببعض التواجد في جنوب شرق آسيا بما في ذلك كمبوديا؛ فالتجار الفرنسيون المقيمون بأنام استعملوا خلال القرن التاسع عشر النهر الأحمر في عملية قصدهم منطقة البونان Yunnan. كما أن منطقة دلتا النهر الأحمر نفسها مثلت سوقا معتبرة للبضائع الفرنسية إلا أن المنطقة عرفت نشاطا قويا للقرصنة. بالإضافة إلى أن حكام أنام لم يبدوا استعدادا لتقبل الوجود الأجنبي بمنطقتي النهر الأحمر والطونكين. وعليه عرفت فرنسا نحو لوي خاص بدعاة استعمال القوة العسكرية لإرجاع الأمور إلى "حالتها الطبيعية". مع ذلك نهجت فرنسا ما بين 1874 و1880م سياسة عرفت نوعا من الاستقرار والاستمرارية؛ فدعاة التوسع لم يكن لهم وزن قوي بالبرلمان هذا إلى غاية وصول أنباء مفادها أن أنام جددت تبعيتها إلى الصين لمواجهة الأطماع الفرنسية؛ فهذا العمل رأته باريس بأنه مخالف لمعاهدة صايغون (15 مارس 1874م)، والتي جعلت من أنام شبه محمية فرنسية. تلك إذن كانت الوضعية التي ورثها فيري عن ملف الهند الصينية حين وصوله إلى الحكم في سبتمبر 1881م.

مع ذلك الوقت أصبحت فكرة استرجاع حقوق فرنسا في أنام جد شعبية. بل ذهب البعض إلى أبعد من ذلك بحيث أصبحوا يطالبون بتجسيد حماية فعلية على أنام. في شهر أبريل 1882م أرسلت أول حملة إلى الطونكين من صايغون. هذا التحرك الفرنسي قابله احتجاج قوي من طرف الصين. نتج عن ذلك تقسيم المنطقة المتواجدة بين النهر الأحمر والحدود الصينية؛ فقبلت الصين الإشراف على الجزء الشمالي المتاخم لحدودها، بينما عاد حق الإشراف على الجزء الجنوبي إلى فرنسا.

حين رجوع فيري إلى الوزارة، قرّر مدّ الحماية الفرنسية لتشمل كل أنام. حدث ذلك في 25 أوت 1883م. في نفس الوقت ألحق الطونكين بالإمبراطورية بعد مجهود حربي طفيف. وفي 06 جوان 1884م أصبحت المقاطعتين رسميا محميات فرنسية. ولأول مرة وجدت فرنسا نفسها على وشك الاصطدام العسكري بالصين. لقد تناقلت الصحافة الفرنسية نبأ احتجاج الصين التي كانت تطالب فرنسا بمغادرة الطونكين. وعليه أصبح فيري متهما بالتورط في حرب مع الصين بدون علم مسبق للبرلمان. لقد التفت المعارضة حول كليمونصو Clemenceau الذي هاجم التوسع الاستعماري على أنه مخالف لمبادئ

1789م<sup>8</sup>. وازدادت الأمور تعقيدا حين وصول أخبار وقوع إصطدامات فرنسية صينية؛ فالعلاقات الفرنسية الصينية ظلت متوترة طول خريف 1884م. إلا أنه في ديسمبر 1884م، وجدت الصين نفسها في حرب مع اليابان في سيول Seoul؛ فالوضعية الجديدة شجعت القادة العسكريين الفرنسيين في الطونكين، الذين نظموا هجوما على حصن لونج صون Lang Son الذي سقط في أيديهم في 13 فبراير. إلا أن الصين استرجعته بسرعة بعد أن أوقعت خسائر معتبرة في الصفوف الفرنسية؛ فحادثة لونج صون وإن لم تكن كارثة عسكرية حقيقية، فإنها مثلت مادة دسمة استعملتها المعارضة بما في ذلك الملكيين ومثلتها "بواترلو" Waterloo جديدة.

بل وصل الأمر إلى حدّ تخوف قادة الوحدة الجمهورية والوحدة الديمقراطية، وهي أحزاب جمهورية رئيسية من الهزيمة في البرلمان. ولهذا جاءوا إلى فيري محاولين إقناعه بالاستقالة قبل اجتماع البرلمان. إلا أن فيري فضل مواجهة الموقف. وحين اجتماع البرلمان لمناقشة تطورات الأزمة اضطر فيري إلى مغادرة القاعة من باب خلفي لفادي الوقوع في أيدي المتظاهرين الذين هددوا بقتله. في الواقع كانت تخوفات البرلمان مبالغ فيها. فبعد أيام من التصويت السلمي، وصلت أخبار مفادها أن الحملة الرئيسة تمكنت من تقليل خسائرها، وأن الصين قبلت بجلاء قواتها من الطونكين.

لقد حاول بعد ذلك فيري تبري سياسته الاستعمارية في كل من إفريقيا والطنونكين على أساس اعتبارات إنسانية واقتصادية وسياسية، إلا أنه مع ذلك كانت سمعته قد تأثرت كثيرا من الحملات المعادية. وهو أمر يجعل من أي حكم موضوعي عليه جد صعب؛ فالطنونكين مثلت أوج سياسة فيري الاستعمارية، ولو أنها أدت في النهاية إلى تحطيمه سياسيا.

وفي الخلاصة<sup>9</sup> بإمكاننا أن نعرّج على بعض الحقائق، والتي بدونها يبقى فهمنا لتلك الشخصية غير كامل<sup>10</sup>، وأول هذه الحقائق يكمن في الوضعية السياسية الدولية التي كانت آنذاك مناسبة لتحقيق فرنسا لأهدافها الإمبريالية؛ فالفراغ السياسي الموجود في آسيا، وبخاصة في إفريقيا كان له انعكاسات سلبية، وأخرى إيجابية على المنافسة الأوروبية. في كثير من الأحيان أوشكت تلك المنافسة أن تتطور إلى صراع مباشر، ولكن في نفس الوقت سهلت المسألة عملية المقيضة السياسية؛ فإجلترا التي كانت قد تدخلت في كل من قبرص ومصر وأجزاء أخرى من إفريقيا وجدت نفسها شبه "مجرة أخلاقيا" على قبول بعض التنازلات لقوى أوروبية أخرى، وبخاصة فرنسا منافستها التقليدية.

من جهته رأى بسمارك أنه إن يتمكن من تشجيع توسعات فيري الخارجية فهذا من شأنه أن يصرف بال فرنسا عن الراين. بالإضافة إلى أن التنافس الفرنسي- البريطاني على المسرح الدولي يخدم لا محالة المصالح الألمانية.

فكل هذه الأسباب مجتمعة تضافرت، ومنحت فيري مجال تحرك واسع وظفه لصالح فرنسا التي أصبحت في عهده القوة الأوروبية الثانية في مجال المستعمرات.

### الهوامش

1- Charies André Julien , Jules Ferry: les politique d'expansion imperialiste, Paris: Presses Universitaires de France 1949- p.12

2- Maurice Reclus , Jules Ferry 1832-1893, Paris :Flammarion . 1947, p. 256

3- تمثلت المسألة في محاولة نابليون الثالث تنصيب الأمير مكسيميليان (Maximilien) (1867-1892) شقيق إمبراطور النمسا، حاكماً على المكسيك مكان الدكتاتور المكسيكي بنيتو خواريز (Benito juarez) (1806-1872). إلا أن الأمر إنتهى بإعدام ماكسيميليان على يد جند خواريز سنة 1867.

4- Maurice Reclus- opcit.

5- C.H.C. Wright , A history of the third French Republic, Boston: Houghton Mifflin Company, 1916, p. 89.

6- Thomas F. Power, Jr, Jules Ferry And the Renaissance of French Imperialism, New York : King's Crown Press, 1944, p.82

7- نفس المرجع- ص130.

8- نفس المرجع- ص168.

9- Frederick L. Shuman , War and Diplomcy in the French Republic, New York :Mc Graw-Hill Book Cie, Inc. 1931. P.128

10- Frederick Lawton, the Third French Republic, London : J.B. Lippincott Cie, 1909 p.23

### البibliوغرافيا:

- Julien, Ch. A, Jules Ferry: Les Politique d'expansion imperialiste, Paris: P.U.F. 1949

- Lawton, Frederick, the third French Republic, London: J.B.Lippincott Cie., 1909

- Olivesti, A. ; Noushi, A., La France de 1848 a nos jours, Paris : Fernand Nathan, 1970

- Power, Thomas F, Jules Ferry and the renaissance of French Imperialism, New York : King's Crown Press, 1944.

- Reclus, Maurice, Jules Ferry 1832-1893, Paris : Flammarion, 1947.

- Schumann, Frederick L. , War and Diplomacy in the French Republic, New york : Mc Graw-Hill Book Company, Inc ,1931.

- Wright H.C ,A History of the third French Republic Boston : Houghton Mifflin Company, 1916.